حضور الولي في المخيال الشعبي

د. بن لباد الغالي
جامعة تلمسان

يعتمد شيخ الصوفية أو الزاوية في الترقي من مقام إلى مقام ومن حال إلى حال على المجاهدة، كسلوك يوظف فيه آليات "محاسبة النفس" ويعمل على رفعها من درجة إلى درجة أخرى، والمجاهد بين المقام والحال حتى يصل أعلى الرتب وهي الولاية. إنها مرتبة اشتهر بها جميع المتصوفة، ونالوا من بركتها ولقبوا بهذا "المقام الصوفي". هذا ما نلاحظه من خلال انتشار مصطلح الولي في التراث الصوفي وحتى في الحياة الاجتماعية. وقد يبدوا ذلك الانتشار واضحا حتى عند الطبقات الشعبية فنجدهم يتداولون مصطلح الولي، ولهذا إذا حاولنا تقديم تعريف لهذا المصطلح فإننا سنقف عند مفهومين مختلفين:

- مفهوم شعبي متداول عند الطبقات الشعبية.
- ومفهوم ديني ورد في القرآن والسنة واعتمده المتصوفة.

1- المفهوم الشعبي لمصطلح الولي:

إن العوام من الناس يستخدمونه للدلالة على ضريح للشيخ الصالح الذي يتوسط المقبرة العمومية، وفي العادة يكون أقدم دفين بهذا المكان، وقد يصفه المخيال الشعبي بعدة أوصاف خارقة كانت تصدر من هذا الشيخ في حياته وبعد مماته، ونجده كذالك يمتاز بذلك الإقبال والحضور الشعبي كما أن خوارقه لا تدفن معه بل تتواصل وتستمر حتى بعد وفاته. وقد تتنوع هذه الصفات والخوارق بين المريدين والمحبين، والمنتميين والسامعين. فالجانب العجيب يختلف عند العينات الشعبية وذلك حسب درجة الاعتقاد في الشيخ أو الولي.

2- المفهوم الديني لمصطلح الوالي:

إذا حاولنا أن نحصر مفهوم كلمة "ولي" في القرآن الكريم فإنها وردت تحت اشتقاقات متنوعة بما يعادل سبعا وعشرين ومائتين مرة.

وأصل الكلمة "و- ل- ي" وتتعدد دلالات الولي في الاستعمالات اللغوية والاصطلاحية.

فولي"أكثرها قد جاءت في الحديث فيضاف كل واحد إلى ما يقتضيه الحديث الوارد فيه وكل من وليً أمرا أو قام به فهو مولاه وليه، قال وقد تختلف مصادر هذه الأسماء فالولاية بالفتح في النسب والنصرة والعتق والولاية بالكسرة في الإمارة والولاء في العتق، والمولاة من ولي القوم"[1]

والولي "الصديق والنصير، يقول بن الأعرابي: الوليً التابع المحب..و المولاة من المعاداة، والولي من العدو ويقال منه" تولاه" أي كفله أو أشرف عليه، فهو كفيله وصاحب نعمته.

والمؤمن ولي الله "صديق" (للذكر والأنثى) وقد يؤنث (ولية) عند المسلمين من استقامت سيرته وكان وجيها عند الناس ومكرما عند الله".[2]

فالولي رمزية مقدسة في الوجود، منزهة تحمل دلالات الصفاء والنقاء، ترتقي بذاتها وتسموا بروحانيتها.

إن هذه الشخصية الكاملة قد تمتلك هذه المعالم من: درجة، أو من مكان أو من مقام وهي الولاية. يقول عز وجل: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾[3].

والولاية حسب القرطبي "الملك والحكم"[4] و"الولي" اسم من أسماء الله الحسنى، فسبحان الذي أشتق من صفته للدلالة على عبارة الصالحين، قال عز وجل ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[5] أي" من تولاه الله تعالى وتولى حفظه وحياطته ورضي عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن"[6].

ومن صفات الأولياء- عن سعيد بن جبير أن" رسول الله ﷺ " سئل عن أولياء الله، فقال " الذين يذكر الله برؤيتهم"[7].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه.عن هذه الآية" سمعت "رسول الله ﷺ "يقول إن عباد الله عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداء، تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى، فقيل يا رسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال : هم قوم تحابوا في الله على خير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون بها، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس"[8].

إلي جملة هذه الخصال التي يمتاز بها الأولياء يضيف علي كرم الله وجهه الجانب الفزيولوجي لصفات هؤلاء الأولياء يقول "أولياء الله قوم صفر الوجوه من السهر، عمش العيون من العبر، خمص البطون من الجوع، يبس الشفاه من الذوى"[9].

تعددت معاني الولي من خلال هذه التعريفات وقد نحصي لها عشرات المعاني لكن نود حصرها بين مفهومين:

الأول يرتبط ارتباطا مباشرا بمعنى القرب فهي تدل بحسب السياق على معاني الصديق والصاحب، والقريب والحليف والناصح.

أما المفهوم الثاني فمعانيه الناصر والحاكم.

الولي في الفكر الصوفي :

اعتمد رجال التصوف في تعريفهم للولي، وبيان صفاته على محورين:

الأول أن الولي منزه عن الخطايا متعالي ويختلف بهذا النحو عن جميع الخلق، فسمو الولي وتقربه من الله وبلوغه مقام الولاية هو تجاوز للدنيوي.

والمحور الثاني هي جملة من الصفات تظهر على الولي في العالم الدنيوي، ويحاول أن ينشرها بين البشر.

وإذا عدنا إلى تعريف القشيري لمفهوم الولي قال "يحتمل أمران: الأول أن يكون فعيل مبالغة من الفاعل، كالعليم والقدير وغيره ويكون معناه من توالت طاعته من غير تخلل معصية.

والثاني: يجوز أن يكون فعيل... وهو الذي يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على الأدامة والتوالي، فلا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة العصيان، وإنما يديم توفيقه الذي هو قدرة الطاعة." [10] حصر المتصوفة الولي في قدرته على الصبر والطاعة لله عز وجل

فالصبر في هذا المقام يمثل نقطة البدء، بحيث يصبر الرجل الصوفي أو "المريد" أو "الفقير" على ملذات الدنيا ومصاعبها، والأخطر من هذا على أذى النفس وانجذابها نحو الغير مشروع، وأذى الناس وأذى الشيطان وأطيافه.

إن الإنسان يعيش في حياته مرحلة الصراع من أجل التحول وإثبات الحضور، كما أنه يعيش مرحلة الاقتراب من ذاته لأنه انخرط في الفعل الروحي، وهو بذلك يتجاوز المادي، ويخرق قانون البشر الذي يقول أن الإنسان روح ومادة.

فينفرد وينعزل عن المحيط محاولا الحفاظ على وجوده الروحي إلى أن يتمكن منه ويبلغ مبتغاه. وقد نصطلح على هذه المعاناة باسم مرحلة العبور والسمو نحو المقدس، حيث يطمح فيها السالك إلى تحقيق رضي الذات الروحية على حساب المادي من خلال الصوم والمجاهدة وقهر النفس، ويمر عبر المحطات. إلى مرحلة تقوده إلى تجربة روحية تختلف عن سابقتها يتأمل ويعيش فيها مرحلة الابتهاج والترقب، إلى أن يبلغ الإنسان الصوفي درجة الولاية، والتي لها شروط خاصة، كأن يكون هذا الإنسان قد تخلص من كل ما يتعلق بالدنيا وتحلى بأخلاق الآخرة، قال بن عباس" ثلاث من كن فيه استحق ولاية الله وطاعته: حلم أصيل يدفع به سفه السفيه عن نفسه، وورع صادق يعجزه عن معاصي الله، وخلق حسن يداري به الناس"[11].

والولاية تتجلى للولي حسب المتصوفة لا بالطلب، أي أن الإنسان الصوفي لا يطلب هذه المرتبة لكن يعمل للوصول إليها.

فإذا بلغ عمله درجة الولي فإنها "تتجلى له الولاية على معنى التعليم الروحي، وبهذا الاعتبار فيحق له هو وحده أن يطلع على السر الحقيقي للوحي الإلهي الذي يهذي السالك في طريقه إلى الإتحاد بالله وهذه الدوقية هي حكمة"[12].

" ومن هذا يتضح أن جمهور الصوفية يطلقون اسم "الولي" على الصوفي الذي حصل في مقام القرب من الله بفضل قداسته، وورعه وفنائه في محبة ربه، ويعتبرون الولاية والنبوة مرتبتين مختلفتين إلى حد أنه يمكن المفاضلة بينهما وإذا قالوا أن الصوفية خاصة المسلمين، والأولياء خاصة الصوفية، فمعنى هذا أن الأولياء خاصة المسلمين، وأن الولاية أعلى مرتبة روحية يصل إليها المسلم"[13].

فالمتصوفة هم خاصة الخاصة انفردوا بصفاتهم عن بقية الخلق في سلوكا تهم وصفاتهم وأفعالهم، ففي باب الصفات كما ذكرنا سابقا وجوههم صفر وعيونهم عمش...

وفي باب السلوكات رجال لا يؤذون ولا يحبون الأذى، كثيرو الطاعة محبو الخير..

وفي باب الأفعال مخلوقات مباركة مدركة لقوانين الطبيعة، مالكة للكرامة، يقول إسحاق الأسفراييني "الأولياء لهم كرامات شبه إجابة الدعاء"[14].

إن صورة الجمع بين الصفات والسلوكات والأفعال هي صورة الإنسان الكامل المصطاف من الله تعالى الذي إدا أقسم أبره، فهو إنسان"بركة" ومصطلح "بركة" يطلق في التعامل الشعبي على الولي صاحب الكرامة التي تكون إما عن طريق الاكتساب، أو التوريث.

للكرامة دور كبير في الاعتراف بالولي إما في حياته أو بعد وفاته، لأن الطبقات الشعبية تتعامل مع الولي بمعطى البركة وهو الجانب المحسوس الذي تلاحظه الطبقات الشعبية وتقر- به.

فالمخيال الشعبي يتعامل مع الخوارق ويتعجب منها لحضور الجانب العجائبي والغريب، والكرامة في أبعادها تحمل هذه الدلالات التي بدونها لا يتحقق حضور الولي وامتداده الزماني والمكاني لأن الطبقات الشعبية تعتقد في الولي باعتباره "رمز" رمز للنقاء والصفاء، ورمز للخلاص والنجاة فهو المنقذ في هذه الدنيا فإذا حلت بركة الولي تختفي كل الشرور.

إنه يمثل سلطة رمزية وحضور الولي في الحياة الشعبية يرتكز على نقطتين أساسيتين بالإضافة إلى النقاط السابقة الذكر.

1- الولي يعتمد على سلطة المقدس الذي يحل فيه فهو الفاصل بين الخير والشر، وهو المدرك لكل معاني الروح، وهو المطلع على أسرار الكون وهو صاحب الحقيقة المطلقة والساهر على العدالة في الأرض، والشافع للناس وهو المحقق لتوازن الكون.

يقول" جان شو قيلي" "و في المذهب الباطني الإسلامي، يعتبر هؤلاء وسطاء وبدلاء إذ بصلواتهم وفضائلهم يخففون من غضب الله ويحفظون العالم من تعجيل العقاب في هذه الحياة الدنيا بسبب ما يرتكبه البشر من الفواحش ما ظهر منها وما بطن"(15)

إن امتلاك الولي لمجموعة من الصفات يرفع بالطبقات الشعبية إلى الاعتقاد فيه، وهو يحقق من هذا الباب حضورا شعبيا واعترافا ضمنيا بأنه صاحب بركة وكرامة، لكن هذا الاعتراف هو ضمني على حد تعبير ماكس فيبر "الاعتراف بالشيخ هو غير رسمي ومحلي، وفي النهاية يصبح الشخص مربوطا من خلال حصوله على بركة يرثها أو يحصل عليها بنفسه وتظهر في الخوارق على يديه"(16).

إن الخارق في المخيال الشعبي هو صورة للإنسان الكامل الذي تتعامل معه الثقافة الشعبية بانبهار وخضوع تام وهي الصورة الثانية التي تحقق للولي حضوره.

الثقافة الخرافية:

الحديث عن الثقافة الخرافية قد يطول بنا لهذا سنركز على ما لهذه الثقافة من تأثير على الاعتقاد بوصفها عقل *الطبقات الشعبية، والخرافة إذا حاولنا البحث* عن جذورها فأساسها الأسطورة التي ظلت الذاكرة الشعبية تتعاطاها طيلة أزمنة تاريخية طويلة واعتبرتها جزء من حياتها، فالأسطورة كانت تجد الإجابة لكل الأسرار الغامضة للإنسان، وذلك لأنها توظف الجانب العجائبي والخارق، ولا تتعامل مع المكان الهندسي، ولا حتى الزمن البيولوجي بل هي نسيج خرافي يتعدى حدود الزمان والمكان ليلج عوالم أخرى لا يستطيع العقل التجريبي أن يقتحمها إنها عوالم روحانية وفضاءات غريبة، وألوان لا يدركها عقل الإنسان، فضل يتوق إلى هذا العالم ليخلصه من معاناته في الأرض.

لأنها كانت تصور له عالم مختلف، عالم متوازن ومثالي. فالإنسان في العالم الخرافي يعيش التخيل ويحاول أن يحاكي ما تخيله، حتى يصبح جزء منه وهو دائم البحث عن هذا العالم المتخيل- فيبحث عن الوسائل التي تقوده إليه وهنا تتولد الاعتقادات.

فهناك من يعتقد أن الطوطم هو أساس الخلاص، وهناك من يعتقد أن النار هو أساس نجاته والكل له معتقده الذي يلج إليه ليحقق الخرافة التي تعيش بداخله.

فالثقافة الخرافية لها تأثير كبير على المعتقدات الشعبية، فهي تطعمها بمجموعة من الأفكار لتضمن لها الاستمرارية والبقاء، والمعتقد الشعبي لا يحقق وجوده إلا بمقدار انتشار هذه الثقافة في الأوساط الشعبية، وقد نلاحظ ذلك من خلال المعاينات الميدانية : أن الطبقات الشعبية الأكثر تعاطي للمعتقدات هي طبقات " قروية أو ريفية" لأنها ظلت متمسكة ومحتفظة بهذه الثقافة الخرافية، وتتناولها بقوة كما أن ذاكرتها الشعبية هي جزء من هذا العالم الخرافي، فتعاطي الطبقات الشعبية للخرافة هو جزء من تخفيض المعاناة والخروج من العالم المادي، الذي أصبح يثقل كاهل هذه الشرائح، لهذا نجدها تتمسك بالخارق لتحقق ذاتها.

و ما بركة الولي إلا جزء من هذا الخارق الذي تعتقد فيه الطبقات الشعبية، وهي تقترب من الولي لأنه الأداة الوحيدة التي تخلصها من "عالم المادة" المتعب والمقلق ويدخلها عالم الروح وهو العالم المتخيل.

إنها وظيفة الرمز المقدس الذي تحول من مرحلة المعاناة إلى مرحلة الاعتقاد، فهو محور وجود هذه الطبقات الشعبية وبدونه يتخيل الوجود. إن الولي الصوفي يحقق في هذا المشهد امتداده الدنيوي الذي يستمر معه حتى بعد وفاته باعتبار أن روحه لم تفن ويمكنها تحقيق مطالب هذه الطبقات الشعبية، ومادام الاعتقاد روحي فإن الاتصال لا يتقطع بل يستمر ويتواصل رمانيا ومكانيا، يقول القشيري في خبر أورده لنا في رسالته :" سمعت أبا بكر الصيدلاني وكان رجلا صالح يقول كنت أصلح اللوح في قبر أبي بكر الطمستاني، أنقر فيه اسمه في قبره " الحيرة*" وكان يقام ذلك اللوح ويسرق غيره من القبور، فكنت أتعجب منه، فسألت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يوما عن ذلك فقال: إن ذلك الشيخ آثر الخفاء في الدنيا وأنت تريد أن تشهر قبره باللوح الذي تصلحه فيه. وإن الحق سبحانه يأبى إلا إخفاء قبره كما آثر هو ستر نفسه"(17).

والملاحظ على الطبقات الشعبية أنها تتبرك بقبور الأولياء وتقصدهم بالدعاء والمداواة في كثير من الأمراض وفي التبرك يقدمون لهم قرابين كالتي كانت تقدم لهم في حياتهم.

الهوامش

(1)لسان العرب لجمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور المجلد الخامس عشر باب الواو والياء دار صادر للطباعة والنشر بيروت 1968 ص 409 – 410.

(2)المنجد في اللغة العربية المعاصرة صبحي حمودي دار المشرق بيروت لبنان الطبعة الثانية سنة 2001 ص 1559.

(3)سورة الكهف الآية 44

(4)الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي–دار الفكر الجزء العاشر من المجلد الخامس ص411

(5) سورة يونس الآية 62

(6)تفسير القرطبي المجلد الرابع الجزء الثامن ص157.

(7) نفس المصدر ص 157

(8)نفس المصدر ص 158

(9) نفس المصدر ص 158

(10) الرسالة القشيرية في علم التصوف عبد الكريم القشيري تحقيق مصطفى زريق المكتبة العصرية بيروت الطبعة الأولى سنة 2001 ص 359.

(11) الأولياء- أبي بكر عبد الله المعروف بأبي الدنيا تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، الطبعة الأولى سنة 1993 ص 13.

(12)التصوف والمتصوفة جان ثوقلي ترجمة عبد القادر فنيني إفريقيا الشرق – بيروت لبنان سنة 1999 ص 103.

(13)نظرية الإمامة - بين الشيعة والمتصوفة- ، محمد علي الجندي مكتبة الزهراء الطبعة الأولى سنة 1991 ص 118

(14)الرسالة القشيرية ص 353

(15)التصوف والمتصوفة مرجع سبق ذكره ص 105.

(16) علم الاجتماع والإسلام دراسة نقدية لفكر ماكس فيبر، تأليف بزين تيرنر ترجمة أبو بكر أحمد بلقايد مكتبة الجسر جدة الطبعة الأولى سنة 1990 ص 109.

(*)الحيرة قصبة الملوك اللخميين في العراق.

(17) الرسالة القشيرية ص 261.

قائمة المصادر والمراجع :

1- القرآن الكريم

2- أبو بكر عبد الله ، الأولياء ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول مؤسسة الكتب الثقافية بيروت الطبعة الأولى سنة 1993.

3- أبو عبد الله القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر المجلد الخامس الجزء العاشر

4- أبو عبد الله القرطبي ، تفسير القرطبي، المجلد الرابع الجزء الثامن

5- براي تيرنر، علم الاجتماع والإسلام - دراسة نقدية لفكر ماكس فيبر- ، ترجمة أبو بكر أحمد بلقايد مكتبة الجسر جدة الطبعة الأولى سنة 1990

6- جان شوفاليي ، التصوف والمتصوفة، ترجمة عبد القادر فنيني إفريقيا الشرق بيروت لبنان سنة 1999.

7- جما الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، المجلد الخامس عشر باب الواو والياء دار صادر للطباعة والنشر بيروت سنة 1968.

8- صبحي حمودي، المنجد في اللغة العربية المعاصرة ، دار المشرق بيروت لبنان الطبعة الثانية سنة 2001.

9- عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، تحقيق مصطفى زريق المكتبة العصرية بيروت الطبعة الأولى سنة 2001.

10- محمد علي الجندي، نظرية الإمامة بين الشيعة والمتصوفة، مكتبة الزهراء الطبعة الأولى سنة 1991.